المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

فكان من الاعمال التي قام بها النبي – صلى الله عليه وسلم – هو تشريع نظام المؤاخاة ، والتي تمّ إعلانها في دار أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهي رابطة تجمع بين المهاجريّ والأنصاريّ ، تقوم على أساس العقيدة ، وتوثّق مشاعر الحب والمودّة ، والنصرة والحماية ، والمواساة بالمال والمتاع .

وهذه المؤاخاة أخصّ من الأخوّة العامة بين المؤمنين جميعاً ، وذلك لأنها أعطت للمتآخيْن الحقّ في التوارث دون أن يكون بينهما صلةٍ من قرابة أو رحم ، كما في قوله تعالى : { ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم } (النساء : ٣٣) .

وقد استمرّ العمل بقضيّة التوارث زمناً ، حتى استطاع المهاجرون أن يألفوا المدينة ويندمجوا في المجتمع ، وفتح الله لهم أبواب الخير من غنائم الحرب وغيرها ما أغناهم عن الآخرين ، فنسخ الله تعالى العمل بهذا الحكم ، وأرجع نظام الإرث إلى ما كان عليه ، وذلك في قوله تعالى : { وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله } (الأنفال : ٧٥) ، مع بقاء العمل بالنصرة ، وتبادل العطايا ، وإسداء المشورة والنصيحة ، وغيرها من معاني الأخوة .

وتذكر لنا مصادر السيرة أسماء بعض الذين آخى بينهم النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقد آخى بين أبي بكر و خارجة بن زهير ، واخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الانصاري، وبين أبي عبيدة بن الجراح و سعد بن معاذ ، وبين الزبير بن العوام و سلامة بن سلامة بن وقش ، وبين طلحة بن عبيد الله و كعب بن مالك ،

وبين مصعب بن عمير و أبو أيوب خالد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين ، وأسماء أخرى بلغت تسعين صحابيّاً .

وعند مراجعة أسماء هؤلاء الصحابة ، نجد أن تلك المؤاخاة لم تُقم وزناً للاعتبارات القبلية أو الفوارق الطبقية ، حيث جمعت بين القوي والضعيف ، والغني والفقير ، والأبيض والأسود ، والحرّ والعبد ، وبذلك استطاعت هذه الأخوّة أن تنتصر على العصبيّة للقبيلة أو الجنس أو الأرض ، لتحلّ محلّها الرابطة الإيمانيّة ، والأخوّة الدينيّة وقد سجّل التاريخ العديد من المواقف المشرقة التي نشأت في ظلّ هذه الأخوة ، ومن ذلك ما حصل بين عبدالرحمن بن عوف و سعد بن الربيع رضي الله عنهما ، حيث عرض سعد على أخيه نصف ماله ليأخذه ، بل خيّره بين إحدى زوجتيه كي يطلّقها لأجله ، فشكر له عبد الرحمن صنيعه وأثنى على كرمه ، ثم طلب منه أن يدلّه على أسواق المدينة ، ولم يمرّ وقتٌ قصير حتى استطاع عبدالرحمن بن عوف أن يكون من أصحاب المال والثراء .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل إن كثيراً من الأنصار عرضوا على النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يقسم الأراضي الزراعيّة بينهم وبين إخوانهم من المهاجرين ، ولكنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – أراد أن تقوم هذه المواساة دونما إضرارٍ بأملاكهم ، فأشار عليهم بأن يحتفظوا بأراضيهم مع إشراك إخوانهم المهاجرين في الحصاد ، وقد أورث صنيعهم هذا مشاعر الإعجاب في نفوس المهاجرين ، حتى إنهم قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – : يا رسول الله ما رأينا قوما قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلا في كثير منهم ، لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلّه " ، كما كانت تضحياتهم ومواقفهم النبيلة سبباً في مدح الله لهم بقوله : { والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون } (الحشر : ٩) .

وقد حفظ النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا الفضل للأنصار ، فمدحهم بقوله : (لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً ، لسلكت في وادي الأنصار) رواه البخاري ،

وبـيّن حبـه لهـم بقولـه (الأنصـار لا يحـبهم إلا مـؤمن ، ولا يبغضـهم إلا منـافق ؛ فمـن أحـبهم أحبـه الله ، ومـن أبغضـهم أبغضـه الله) رواه البخـاري ، ودعـا لأولادهـم وذريـاتهم بالصـلاح فقـال : (اللهـم اغفـر للأنصـار ، ولأبنـاء الأنصـار، ولأزواج الأنصـار ، ولـذراري الأنصـار) رواه أحمـد ، وآثـر الجلـوس بيـنهم طيلـة حياتـه فقـال : (لـولا الهجـرة لكنـت امـرأً من الأنصار) رواه البخاري .

وبهـذا نسـتطيع أن نلمـس عظمـة هـذا الجيـل الـذي تربّـى علـى يـد النبـي – صـلى الله عليـه وسـلم – ، عنـدما كانـت الأخـوة الإيمانيّـة هـي الأسـاس لعلاقـاتهم ، فمـا أحوجنـا إلـى أن نتّخذ هذا المجتمع الفريد قدوة لنا في تعاملنا وعلاقاتنا .

سبب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأهميتها:

وأدت الهجـرة إلـى تنـوع سـكان المدينـة، حيـث صـار فيهـا مـن الأحيـاء المختلفـين غيـر الأوس والخـزرج مـن العـرب، وضـم ذلـك كلـه وحـدة المسـلمين، وكـان أعـداؤهم المنـافقين واليهود، فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنين، والمنافقين، واليهود.

لمـا اجتمـع هـذا العـدد مـن المهـاجرين فـي المدينـة، كـان لا بـد مـن إيجـاد حـل لهـؤلاء الوافـدين القـادمين الـذين كثيـرٌ مـنهم مـا عنـدهم أمـوال ولا بيـوت ولا مـأوى، فجـاء الحـل الشـرعي، وهـو: المؤاخـاة، واعتبـر الإسـلام المـؤمنين كلهـم إخـوة، فقـال تعـالى: إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات: ١٠].

وأوجـب علـيهم: المـوالاة لبعضـهم، والتناصـر فـي الحـق بيـنهم، وحصـلت المؤاخـاة بـين المهاجرين والأنصار .

المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم:

وذهـب بعـض المـؤرخين: إلـى أنـه قـد حصـلت مؤاخـاة فـي مكـة بـين بعـض المكيـين، وقـد أخـرج الحـاكم وابـن عبـد البـر بسـند حسـن عـن ابـن عبـاس أنـه قـال: "آخـى النبـي – صـلى الله عليـه وسـلم– بـين الزبيـر وابـن مسـعود" . وابـن حجـر –رحمـه الله– ذهـب إلـى أن الـنص إذا جـاء، فإنـه لا بـد مـن الأخـذ بـه، وأن هنـاك حكمـة أخـرى للمؤاخـاة، وهـي: أن

بعض المهاجرين كان أفضل من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فآخى بين الأعلى والأدنى من المهاجرين أنفسهم، حتى يرفق الأعلى بالأدنى، ويستعين الأدنى بالأعلى، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة؛ لأن زيداً مولاهم، وإن كان هناك مؤاخاة في مكة، فهي شيء يسير، ولو كان هناك في المدينة مؤاخاة بين بعض المهاجرين، فهي حالات خاصة من مهاجر عنده إمكانات.

المؤاخاة الحقيقة بين المهاجرين والأنصار:

والمؤاخاة الأساسية كانت بين المهاجرين والأنصار.

وكانت المدينة بطبيعة الحال فيها الزراعة والصناعة التي لم يكن المهاجرون قد تمرسوا بشيء منها؛ لأن وظيفة المهاجرين الأساسية في مكة كانت التجارة؛ لأن مكة لم تكن بلداً ذات زرع.

ثم إن هؤلاء المهاجرين لما قدموا إلى المدينة لم يستطيعوا ممارسة التجارة؛ لأن التجارة تحتاج إلى رأس مال، ولذلك لم يتمكنوا من شق طريقهم بأنفسهم في المجتمع الجديد، وكانت حياتهم في المدينة حياة صعبة، وكان الحنين إلى مكة شديداً، وأصابت المهاجرين حمى يثرب، وهي وباء كان فيها، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- دعا الله أن تنتقل الحمى إلى الجحفة، ورفعت الحمى من المدينة، ونزلت في الجحفة، فهي المرأة السوداء التي رآها عليه الصلاة والسلام في المدينة في منامه.

ودعا النبي -عليه الصلاة والسلام- الله -عز وجل- أن يحبب المدينة إليهم كحبهم مكة أو أشد، وبالفعل صارت محبة المهاجرين للمدينة شديدة، حتى إنهم بعد فتح مكة ما جلسوا في مكة، وإنما رجعوا إلى المدينة، ورجع النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى المدينة، مع أنها فتحت مكة، ورجعت إليهم بيوتهم ودورهم وأموالهم، ولكن مع ذلك بقيت محبة المدينة هي الأساس، فرجع النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه المهاجرون جميعاً إلى المدينة.